



يروم هذا المقال إبراز مفهوم العفة في الشعر، وهو في نظري بشكل بؤرة لمعالم التراث النقدي في الشعر العربي، بقصد الوصول إلى رؤية جديدة للشعرية العربية. وتتبع الصراع الذي نما عبر العصور بين القيم النقدية التقليدية وأراءصاتها الشعرية الموروثة من جهة، والقيم الفنية الإسلامية التي استطاعت أن تثمر بعد قرون من هذه المواجهة قصيدة المديح النبوي بنفسها الشعري الجديد، وبمروءتها الأخلاقية الجديدة من جهة ثانية.

د. عبد المنعم الوكيل - المغرب

تمود، إذن، أقدم مواجهة نقدية بين القيم الفنية الجاهلية والقيم الفنية الإسلامية إلى سكوت لبيد عن قول الشعر بعد أن استعاض عنه بسورة البقرة (*)، ولم يكن هذا السكوت استجابة لنهي محرم، فقد ظل غيره من الشعراء المسلمين ينظمون الشعر، لكنها المروءة الإسلامية التي انطلقت من ضمير لبيد نفسه لترغمه على السكوت، وتلت هذه المواجهة الصامتة مواجهة أخرى في عهد بني أمية، عبر عنها الشاعر الكميت في منظومة شعرية جعلته مقتنعا بأن الغزل



العِفَّة:

رؤية جديدة في الشعرية العربية



تضخيم المكان الشعري باعتباره عنصرا فنيا يمكنه من أن يعشق ويحن ويشواق ويهيم دون أن يتطلب منه ذلك استحضارا شعريا مباشرا للمرأة. كانت الأخلاق غير الإسلامية إذن وحدها دون وسيط نقدي قادرة على تحويل العفة إلى رقيب ينبعث من ذات الشاعر نفسها ليمتنع من الإفحاش بعد أن كان الرقيب في النسيب القديم إنسانا يراقب الشاعر من الخارج، وغياب الشاعر عن عين الرقيب - في الشعر طبعاً - كان يجعله أمام سلوك شعري لا أخلاقي، استطاعت العفة في النسيب الجديد بعد تحولها إلى رقيب أن تمنع الشاعر من سلوكه رغم انفراد بحبيبته، يقول مهيار الديلمي:

فكم ليلة ورقيب العيون

لا يحمل النوم إلا خفيضا

سهرت ففاسقني طرفها

وألفاظها ثم كنت العفيضا

وقد كان حب يقض الضلوع

ولكنه كان حبا شريفا

التقليدي وما دل عليه من الحالات الوجدانية كالهيام والشوق والطرب والصبابة والصبوة ليس محركا بالضرورة للشاعرية، ليصرف شعره وعشقه وشوقه وهيامه إلى محبوب جديد:

فاعتتب الشوق من فؤادي وال

شعر إلى من إليه معتتب

إلى السراج المنير أحمد لا

تعدلني رغبة ولا رهب

إن دعوة الكميت إلى صرف الحب إلى الحبيب المصطفى ﷺ لا يفسر إلا بكونه تحولا نقديا، وهو تحول ناتج عن المروءة الشعرية المتأثرة، بالقيم الفنية التي أثمرتها الأخلاق الإسلامية، مما يؤكد أن الأعراف الفنية التي أثمرتها الأخلاق الإسلامية، تعرضت وهي تواجه هذه القيم الجيدة لهزة فنية تاريخية، هذه الهزة هي التي أفقدت الأعراف هيبتها، وجرات عليها الشعراء اللاحقين فيما بعد^(١).

كانت هذه الردة بداية نقدية جديدة أعلنتها الأخلاق والقيم الفنية الإسلامية في هدوء على القصيدة التقليدية الموروثة التي وصل فيها المجون الشعري والكذب الشعري ذروتها، وقد اختارت هذه الأخلاق لهذه المواجهة واجهتي الغزل والنسيب، ثم المديح. أما الهجاء فقد أنهت القيم الإسلامية أمره عندما أجبرت النقاد على أن يعترفوا بأن الهجاء المقذع الفاحش سباب وشتم ليس لهما من الشعر إلا الوزن والقافية.

«الواجهة الأولى: الغزل والنسيب»

إن أهم ماتطالعنا به الشرعية الجديدة هو حضور العنصر الأخلاقي الإسلامي الذي جعل المروءة الشعرية توجه الشعراء نحو استحضار العفة باعتبارها عنصرا شعريا يراقب السلوك الشعري للشاعر في القصيدة نفسها، ونحو المبالغة في



وكما أدت العفة إلى نقاوة المعاني الغزلية، أدت إلى نقاوة المعجم الشعري، فالفصاحة التي كانت تقوم على تصورات صوتية، أو نحوية، وتركيبية، أصبحت بتوجيه الخلق الفني الإسلامي تقوم على تصورات أخلاقية. فالشعر الفصيح لغة يصبح غير فصيح بمجرد أن تظهر فيه لفظة واحدة فاحشة، مهما بلغت فصاحته من القوة، وأدى هذا التحكم الأخلاقي في مفهوم الفصاحة إلى نفور كبار الشعراء من الهجاء^(٧). وبلغ التحكم الخلفي في المعجم الشعري غايته عندما أصبح الشعراء يعتبرون ورود اللفظ الفاحش في القصيدة إهانة للسامع والممدوح، ولو كان واردا في سياق التعريض بأعداء الممدوح.

أما تضخيم الأخلاق الإسلامية للمكان الشعري في النسب الجديد، فقد حول الشوق الشعري نحو حبيبة بدوية شاحبة الصورة تدل عليها ديارها دون أن تسمح بتبرجها. لقد أصبح الخيف ومنى وسلع وحاجر وذو سلم وكاظمة وغيرها من ربوع نجد والحجاز معشوقات جددا يفرغ الشاعر في الحنين إليها شوقه وانفعالاته الشعرية. هذه الديار الحجازية والنجدية التي كان الشاعر القديم يحل بها في نسبه أصبحت بعد تعطر ثراها بطيب خير المرسلين تحل في قلب الشاعر الملتزم وهو يصوغ نسبه الجيد، دون أن يكون قد رآها من قبل، يقول الشريف الرضي:

فاتني أن أرى الديار بطرفي

فلعلي أرى الديار بسمعي

إن هذا الارتباط الفني بين الخلق الإسلامي من جهة، والعفة الشعرية والديار الحجازية النجدية من جهة ثانية، هو الذي جعل الشريف الرضي ينظم الحجازيات، والأبيوردي ينظم النجديات، بل إن هذا الارتباط هو الذي جعلنا نستمتع ونحن نشد دون تحرج قول الإمام البوصيري:

أمن تذكر جيران بني سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من اضم

إن النقاوة الشعرية التي صبغت بها القيم الفنية الإسلامية النسب الجديد، هي التي مكنت من أن تصبح مفهوماً جديداً، نافعا ومفيدا، إبداعا وفتا، لا ترفاً زائداً، ولا متعة رخيصة، ولا دغدغة للفرائز البهيمية.

«الواجهة الثانية»:

أما المعترك الثاني الذي واجهت فيه القيم الإسلامية القيم النقدية التقليدية فقد كان المديح، إن الصلوات الجزيلة التي كانت تغري المادحين في قصور الكذب الشعري بالبحث عن شتى أنواع المبالغة والغلو لم تستطع أن تستمر مع شعراء القصيدة الجديدة، وكان الطرماح قد حذر الشعراء قبل ازدهار فن المديح من سؤال العباد:

أيها المادح العباد ليعطى

اسأل الله ما بأيدي العباد



بعيدا عن الإفحاش والتعهر والعريضة في القول. وهذا لا يعني في شيء تأخرا فنيا ولا جماليا، بل العكس من ذلك، فهؤلاء الشعراء اجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد حتى أضحى الصدق ديدنهم، والإصابة مطمحهم، والعبارة النافذة مقصدهم وغايتهم، يقول أبو تمام:

سأجهدُ حتى أبلغَ الشعرَ شأوه

وان كان طوعا وتستُ بجاهد

كل هذا وذاك هيا الذوق الأدبي والشاعرية للانصراف نحو نفس شعري جديد عرفته القصيدة العربية عبر تحولاتها، أقصد بذلك قصيدة المديح النبوي بنفسها الشعري القوي ومروءتها الشعرية الإسلامية الجديدة التي أصبحت غاية فنية انتهت عندها القصيدة العربية. ومن ثمة أصبحت العفة الشعرية عنصرا فنيا وجوهريا، بل ومقياسا للمفاضلة بين الشعراء.

وبذلك استنزلت الشعر من مكانته التي كانت تحوطها الترهات والأقاويل الكاذبة، وردته موهبة إنسانية، وصفته من شوائبه، فارتضت انطلاقه وتدققه على السنة الشعراء على الوجه الصحيح والسليم ■

الهوامش:

(*) هذا أمر غير مسلم به لأن ديوان لبيد يضم قصائد كثيرة

قالها بعد إسلامه (التحريم)

(١) مثل تجرؤ أبي نواس على استبدال عشق الخمرة بعشق المرأة في قوله:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب على الورد من حمراء كالورد

(٢) مثل المتنبى الذي ندم على هجاء ضبة في بائيته التي مطلعها:

ما أنصفَ القومُ ضبَّةً

وأُمُّهُ الطُّرْطُيَّةُ

(٣) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، الطبعة الثانية، مطبعة التأليف والنشر، القاهرة، ج ٢/١٣٨.

لقد كرم الله الإنسان، ودعا الرسول ﷺ - صيانة لهذه الكرامة - المسلم إلى الاحتطاب طلبا للرزق، وتجنبنا لذل السؤال. وامتدت هذه الأخلاق إلى حس الشاعر المادح لتقنعه بأن ماء الوجه أغلى من أن يسترخض في سوق المديح الذي أصبحت إهانة الشعراء فيه أقوى من أن تتجاهل. ويصور التوحيدي هذا الوضع الذي آل إليه الشاعر المادح في عصره بقوله: «بل لا ترى شاعرا إلا قائما بين خليفة أو وزير أو أمير باسط اليد، ممدود الكف، يستعطف طالبا، ويسترحم سائلا، هذا مع الذلة والهوان، والخوف من الخيبة والحرمان...»^(٢).

كان الشاعر يوصف بأنه أشعر الناس إذا طمع. لكنه أصبح في ظل القيم الفنية الإسلامية يحس بأنه أهون الشعراء إذا طمع، هذا التحول في تقويم المديح كان تحولا في القيم النقدية نفسها بعد أن منحت الأخلاق الإسلامية للقناعة مكانا رحبا في نفوس للشعراء.

كان تحقق العفة - إذن - واعتراف الشعراء بكساد سوق المديح والكذب المادح انتصارا صريحا للقيم الإسلامية التي تنزع بالشعر منزعا أخلاقيا تهذيبيا،